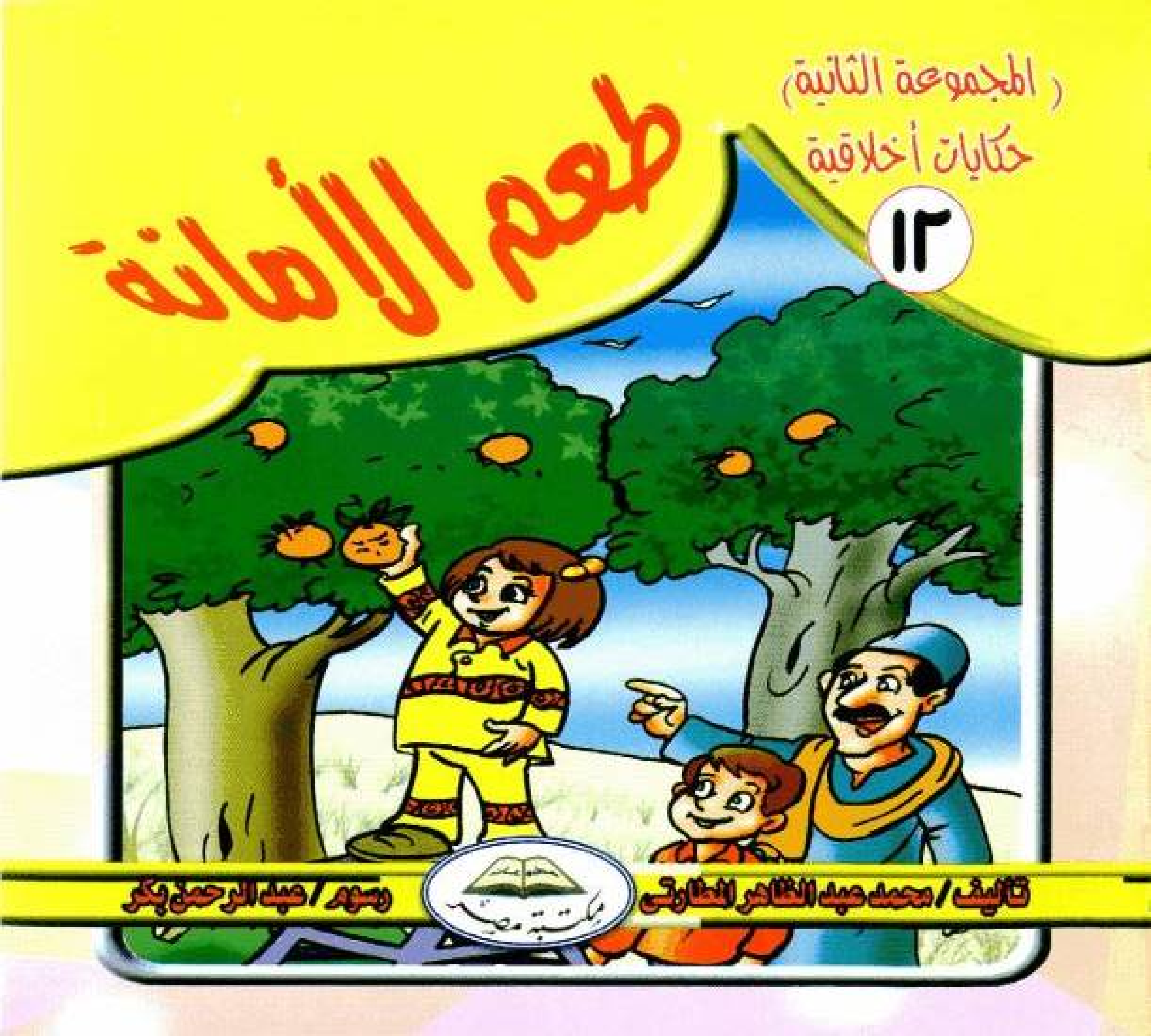


(المجموعة الثانية)
حكايات أخلاقية
١٢
طعم الأمانة
تأليف / محمد عبد الظاهر المطارقي
ورسوم / عبد الرحمن بكر



لم تكن المرة الأولى التي أقف أمامها هكذا لأتأمل هذه الأشجار الخضراء وهي تهتز وتتـراقص تحـت وطـأة الريـاح والأمطار المتساقطة.

نظرت عيني إلى حبات البرتقال في أعلى الأشجار، فوجدتها تتلألأ كحبـات الجـواهر النفيسة، كانت تبتـسم فـي تـألق وكأنهـا تدعوني لقطافها. ووجـدتني أحلـم بقطـف إحداها وأقوم بتقشيرها والتهامها.

إن برتقالة بهذه الروعة وهذا البهاء حتمًا سيكون لها طعم ساحر!

ترددت بعض الشيء وقلت في نفـسي: أليست هذه برتقالة؟

لكنني هززت رأسي في عدم اكتراث وقلت:

أشجار بهذه الكثافة، تحمل كل هذا الكم مـن البرتقال، ماذا يضير لو أكلت منها بعض الحبات!

وإن على أن أتحرك بسرعة، وأقفز مـن فوق الجدول الذي يمر منه الماء.

أمسكت بقطع من الحجارة الصغيرة ورحت أرمي بهـا البرتقـال.. وإذا ببعض العصافير تمرق فزعة من بين أفرع الشجرة وتتجه نحـو شجرة أخرى وهي تطلق أصواتًا غاضبة.

حملت ما أستطيع حمله من حبات البرتقال، وقد اخترت هذه لحبات بعناية شديدة، فهي كبيرة الحجم نسبيًا، مشرقة كالشمس، تسيل اللعاب.

وهناك بجوار النهر الجاري، كانت الأمطار قد توقفت عن السقوط، وظهر قرص من الشمس وهو يغوص خلف الحقول والنخيل وقد صار في لون الدم.

كانت الابتسامة ترتسم على وجهي وأنا أمسك بالبرتقالـة وأقـوم بتقشيرها. ولما حاولت أكلها لم أستطع لشدة ما بها من مرارة. رميت بها في النهر وقد تغيرت ملامح وجهي واختفت الابتسامة بعض الشيء.

أمسكت بالبرتقالة الثانية، ووضعتها على فمي. بيد أنها لـم تكـن بأحسن من الأولى. وهكذا وجدت الكثير من البرتقـال يحمـل مـرارة شديدة، فرميت به في النهر وأنا أشعر بالامتعاض والضيق، وقد اختفت الابتسامة تمامًا من وجهي.

قلت لنفسي: ما هذا؟ ما الذي حدث؟.. فإذا بصوت عميق أسـمعه ولا أرى صاحبه يقول:

- لأنه ليس ملكًا لك.



شعرت بالخوف والذعر، فركضت أسابق الريح حتى وصلت إلى البيت.

في الليل، وأنا نائم رأيتني أركض مسرعًا والبرتقال يركض خلفي ويصرخ: لص، مجرم.. أمسكوه!

كان البرتقال يشبه إلى حد كبير جنود الشرطة وهم يتقافزون بسرعة محاولين القبض علي. لكنني استطعت أن أفلت من قبضتهم لأجد نفسي في مواجهة مجموعة من الكلاب المتوحشة.

- يا إلهي، ماذا يمكن أن أفعل؟
- وراحت الكلاب تعوي وهي تقترب مني وقد تسمرت مكاني مستسلمًا لها، وما كادت تلمسني حتى صرخت:
- النجدة .. أنقذوني.. آآآه!
- واستيقظت فجأة لأجد نفسي ما أزال على سريري، ووالدي يجلس بجواري، وأمي تربت على كتفي وتحاول تهدئتي.

قال أبي: كل إنسان يقع في أخطاء، لكن العاقل فقط هو الذي يتعلم ويستفيد من هذه الأخطاء.. وأنا شخصيًا وقعت في أخطاء عندما كنت صغيرًا مثلك. ثم صمت قليلاً وهو يربت على كتفي ويقول:

- إذهب إلى صاحب البستان وقدم إليه قيمة البرتقال الذي أخذته، وأطلب منه الصفح والسماح.



- لكني يا أبي لا أستطيع، سيتهمني بالسرقة، وربما يقدمني إلى الشرطة!
- عليك أن تتحمل نتائج أفعالك وتكون شجاعًا.
- أمرك يا والدي
- ودخلت غرفتي، وأخرجت صندوق النقود الذي أدخر فيه مصروفي اليومي وقمت بفتحه. ثم أخرجت عددًا من النقود وضعتها في جيبي وأنا أهتف من أعماقي:
- يا رب سامحني.. ساعدني على رد النقود إلى صاحبها.

في بيت صاحب البستان كنت أجلس أحتسي الشاي، والهواء النظيف المحمل برائحة البرتقال يهفو إلينا من خلال النوافذ المفتوحة التي تطل على الحديقة، ويداعب وجهي وشعري.

كنت قد رويت له كل ما حدث. وحاولت أن أقدم له قيمة البرتقال الذي استوليت عليه دون وجه حق.

لكنه ابتسم في نعومة محببة وقال لي: لا، لن أسامحك أبدًا!

اعترتني الدهشة، وشعرت بالدماء تتصاعد إلى جميع أوصالي. قلت: إنني يا سيدي أقدم إليك شديد أسفي وخجلي، وهذه النقود هي قيمة الـ..

هز رأسه مبتسمًا وقال: أسامحك في حالة واحدة فقط.



قلت على الفور: أخبرني يا سيدي، أرجوك!

فرقع بيده فإذا بخادم صغير يدخل حاملاً قفصاً كبيرًا به كمية هائلة من اليوسفي والبرتقال، ثم وضعه أمامي.

قال الرجل صاحب البستان :

- عليك أن تقبل مني هذه الهدية حتى أسامحك وأعفو عنك!
- سيدي، كيف، إنك؟
- لا عليك يا ولدي، فإن من يملك هذا الضمير الحي، وهذا الإحساس المرهف يجب أن يتم تكريمه، أنت إنسان أمين، نادر المثال.. ربما حاول الشيطان خداعك، لكنك بحسن أخلاقك، وطيب معدنك جئت إلى هنا، رغم أنني لم أرك حين فعلت ذلك.
- شكرته كثيرًا .. كثيرًا جدًا، وقمت لأنصرف فإذا به يصحبني إلى البستان ويحكي لي قصة حياته الطويلة المفعمة بالعمل والكفاح حتى رزقه الله بهذا البستان.
- قال لي :
- ليس لي إلا ابنة صغيرة، في مثل عمرك تقريبًا، وهي متفوقة في دراستها وتعشق البستان، تحلم أن تصير مهندسة في الزراعة، فتساعد في تعمير الصحراء وتنشر اللون الأخضر في كل مكان.



قلت له: يا لها من أحلام جميلة راودتني كثيرًا.

قال في اهتمام :

- إذا كنت تتمنى أن تصير متخصصًا في مجال الزراعة وغـرس الأشجار عليك أن تقرأ الطبيعة جيدًا وتحاول دراستها بجد.
- ثم صمت قليلاً وقال: بستاني كله طوع أمـرك، اعتبـره حقـل تجارب.

في الأيام التالية ذهبت إليه، ورأيت ابنته، كانت رائعة الحسـن، تهتم بالبستان، فتحنو على أشجاره وتداعب طيوره وتبتسم للنـسيم، ولجدول الماء.

قالت: أجمل شيء في الحياة هو الهدف، حبذا لو كان هدفًا نبـيلاً، ساميًا.. يعود عليك وعلى الجميع بالخير والسعادة.

قلت: إنني كل يوم أتعلم منك شيئًا جديدًا.

قالت: المعرفة هي البوابة السحرية التي تدخلنا إلـى عـالم أكثـر رحابة وجمالاً.. حاول أن تقرأ في الكتب، أنظر إلـى الطبيعـة، تأمـل الوجود، ستعرف عظمة الخالق وقدرته، ستحافظ على نعم الله وتحاول أن تدافع عنها.

قلت في نفسي:





"يا لها من فتاة رائعة، صغيرة.. لكنها تحمل عقلاً ناضجًا".

مرت الشهور والأعوام، وتوطدت علاقتي بصاحب البستان حتى صرت بمثابة ابن له، أساعده في خدمة البستان، وأعمال الأرض.. أذاكر بين أشجاره، أتأمل الكون الفسيح من خلاله. وها أنا الآن كبرت وصرت عالمًا متخصصًا في مجالات الزراعة. أما زوجتي العزيزة ابنة صاحب البستان فقد أصبحت من العالمات البارزات في هذا المجال.

وقد قمنا سويًا بعمل مشروعات كبيرة داخل أعماق الصحراء، والحمد لله رب العالمين.